أنواع الإلحاد

نظرة مجملة

علي حمزة زكريا


شبكة الفكر
alfeker.net

المحتويات

مدخل ٤

الحالة الأولى: الإلحاد العلمي ٨

الحالة الثانية: الإلحاد الأنثروبولوجي ١٣

الحالة الثالثة: الإلحاد الاجتماعي ١٥

الحالة الرابعة: الإلحاد النفسي ١٩

الحالة الخامسة: الإلحاد الفلسفي ٢٢

الحالة السادسة: الإلحاد الأدبي ٢٦

الحالة السابعة: الموقف اللا أدري ٢٩

الخلاصة ٣٢



تنويه

هذا الكتيّب ليس بحثًا أكاديميًا صرفًا لذا قد يخلو من الإشارة المكثفة للمصادر أو لثَبتٍ لها لأنه لم يتم الاستعانة بها في معظم ما كُتب، وجُلّ ما كتب هو من وحي الاطلاع والخبرة والقراءة والتفاعل في وسائل التواصل المختلفة. لذا لكل من ساهم مشكورًا في يوم من الأيام لإرشادي أو تعليمي أو تنبيهي أو مشاركتي لشيء من العلم كل العرفان والتقدير.

مدخل

لا يمثل الإلحاد حالة جديدة، ولا تمثل الشبهات المطروحة جديدًا على المستوى الواقعي، وإن كانت كذلك على مستوى التقديم اللفظي. الشيخ أبو الفتح الكراجكي (ت ٤٤٩ هـ) مثلاً في كتابه (كنز الفوائد) يذكر شبهات ملاحدة ويردّ عليها، وبمراجعتها تجدها لا تختلف عن الشبهات المطروحة اليوم في شيء، وبالعودة إلى التراث الروائي للأئمة الطاهرين عليهم السلام ستجد عشرات المناقشات مع الملاحدة واللا أدريين ولن تجد فيها تباينًا عمّا يطرح على الساحة حاليًا.

التطور التكنولوجي والانفجار المعلوماتي لم يؤديا إلى توسع بهذه المباحث وإضافات جديدة بل مجرد إعادة صياغة؛ فلا ترى في الأطروحات الفيزيائية الحالية الداعمة للإلحاد إلا تسلّق فلسفي — بعد أن تم تشويه معنى الفلسفة - بمصطلحات علمية، لأن العلم في حدّ ذاته لا ينشغل بغير سؤال (كيف؟)، فاشتغاله الأساسي في اكتشاف آليات العمل وتفسيرها، أما التساؤل عن غاياتها وأهدافها فهو سؤال خارج مجال العلم ولا يتعلق إلا بالدين والفلسفة المخولّين بالإجابة عن سؤال (لماذا؟).

لكن الملحد ينطلق من مسبقات عنده وهي أنه لا يريد مجالاً لله سبحانه في وجوده، ولا يريد أن يؤمن بالله سبحانه، فإن قلت له أن الموجود لابد له من واجد أنكر وادعى نسبية القواعد العقلية، وإن قلت له الكون ليس قديم علميًا، وأثبتّ له ذلك، قفز معك إلى مركب فيزياء الكم، وإن حاورته به واثبت عكس مطلبه، هرب إلى وحشية الشريعة، أو استدعى كل ما حفظه عن التطور الدارويني حتى وإن كان لا يتصادم مع الإيمان بالله! فإن عجز اتهم المؤمن بأنه يؤمن بـ"إله الثغرات"!

إن أهم ملاحظة هي أن منهجهم مشوش وغير واضح فلا تعلم هل هم عقليون؟ أم هم نصوصيون؟ وهل هم علماء أم مجرد مهرجين؟ لأن الأطروحات عندهم لا تزال غير ناضجة فلا تدري هل هو ينفي الذات الإلهية أم هو ينفي الحاجة إلى الإله أم هو يستشكل على عدل وحكمة الله سبحانه، فهل هو ينطلق من الإشكال على وجوده أم في أصل وجوده؟ وهل مشكلته مع الإله أم مشكلته مع الدين؟ ومع الله أم مع فهمه للإله؟

ومن المهم الالتفات إلى أنّ مناهج ونظم التعليم الغربية التي استوردتها بلادنا كلها ماديّة في هيئتها ومادتها، سواء من ناحية مجالات التفكير أو حتى طبيعة التفكير، كلها لا تخرج من دائرة الوجود المادي، ممّا جعل الإنسان الذي ينمو في اطارها ينزل بمداركه إلى حدّ الاقتصار على الحسّ وما هو محسوس، فباتت مشكلة الغرب الدينية – والتي لم تكن سابقًا تمثل مشكلة في الشرق

لنفي الاتحاد بين الخالق والمخلوق وتعاليه سبحانه[(١)] – تمثل اليوم مشكلة في الشرق، فصارت قضية الشر ومادية العالم ومحدودية الخالق وكل أفكار الإلحاد الغربية التي تقوم على أساس ذلك هي الرافد الأساس للإلحاد المعاصر عندنا، وهذا التراجع الرهيب في طبيعة التفكير هو نتاج مباشر لما تصورناه نظامًا تعليميًا يرتفع بمدركات الإنسان بينما هو العكس من ذلك[(٢)] لأنه يرفع مادية الإنسان بقدر ما يُنزّل من روحانيته حتى بات الإنسان فرحًا بموقف اللا أدري حيث لا يدري أي طرفيه أطول!

وقد انتجت هذه الأمور حالات متزايدة من الإلحاد في واقعنا المعاصر، ولعله لهذا السبب باتت هناك حاجة لتحليل الإلحاد وادراجه تحت عناوين رئيسية توضح الفكرة الأساسية لكل اتجاه من هذه الاتجاهات الإلحادية تسهيلاً للتعاطي معها، ولا تقدم هذه الرسالة حصرًا عقليًا بل حصر استقرائي لأبرز اتجاهات الإلحاد البارزة على الساحة مع الإشارة لأهم مبتنياتها وظهوراتها، تاركًا الردّ المفصل

[(١)] سيد حسين نصر، مقطع على اليوتيوب بعنوان (ما هو سبب وجود الشر؟)

[(٢)] يقول العلامة الطباطبائي في الميزان ٢٧٣/١٠: "إن مزاولة الإنسان للحس والمحسوس مدى حياته وانكبابه على المادة وإخلاده إلى الأرض، عوّده على تمثيل كل ما يتعقّله بصورة الأمر الحسّي حتى فيما لا طريق للحس والخيال إلى حقيقته كالكليات والحقائق المنزهة عن المادة. ويؤيده في ذلك أن الإنسان إنما يصل إلى المعقولات والكليات من طريق الإحساس والتخيّل فهو أنيس الحس".

عليها لمجال آخر، مكتفيًا بالهوامش التي فيها استطراد على أصل البحث، وإن طال الهامش أحيانًا إلى مقدار البحث، راجيًا المعذرة.

أخيرًا، فإن بحث الإلحاد يبقى ما بقي الإنسان، وما بقيت صفاته وأطباعه، واحتياجاته وأمراضه، فإن لكل منها دخالة في تكوينه وفي اتخاذه لمواقفه في هذه الحياة، وطالما أن النفس لها سلطنتها وحكومتها فإنه كما أن الخير باق فيها، كذلك هو الفجور، وما لم يسعَ الفرد إلى تزكية نفسه وربط وجوده المحدود بالوجود المطلق، ساعيًا إلى التصبغ بصبغة الله سبحانه وتعالى فإن الفجور والظلم والتجرّي يتمددون في داخله حتى يهلك الإنسان وهو يحسب أنه يحسن صنعًا!

والحمد لله ربّ العالمين

○ الحالة الأولى: الإلحاد العلمي

لفظ العلم هنا مرادف لكلمة (Science) الإنجليزية، والمعني بها العلم التطبيقي أو التجريبي إن صح التعبير[١]. وأصحاب هذا الاتجاه يبررون إلحادهم بالكشوفات العلمية والنظريات العلمية كنظرية التطور الحديثة[٢]، وقوانين الفيزياء الكمية، وغيرها في إثبات إما

---

[١] إن اعتبار المادة هي الحقيقة الوحيدة في هذا الوجود، حصر لفظ العلم على أنه "المعرفة المنظمة التي تعبر عن خصوص ما يكتسب بالحس والاستقراء في مجال عالم الطبيعة وقوانينه" ويدخل ضمن ذلك قوانين العلوم الطبيعية والفيزيائية والاجتماعية، وكل ما يمكن ملاحظته وتجريبه وقياسه ماديًا، بحيث يمكن تحويل كل شيء إلى قوانين ثابتة يتم التعامل معها، وهذا النزوع نحو "قوننة" كل شيء يدل ضمنيًا على نفي أي وجود آخر غير مادي له أثر وتأثير. لذلك يتم التعامل مع الإنسان على أنه آلة ومع "العِلم" على أنه آلة كذلك، والآلة لا قيم لها ومن ثم فإن الافتراق بين العلم والقيم واضح، ومن هنا فإن الدين أو الروحانية تمثل عائقًا بين التطور العلمي والنهوض التقني من ناحية قيمها المكبلّة، ومن ناحية اعتمادها على مصادر معرفة من خارج عالم المادة، كالوحي والمكاشفة والمسائل العقلية المجردة، ولهذا كان اعتقاد بعضهم سائدًا بأن التطور العلمي "المادي" إنما نهض من أوروبا وليس من الهند مثلاً لكون الثقافة الهندية لا ترى في العلل الطبيعية حقائقًا إنما هناك علل خفية تقف وراءها. للمزيد راجع: "من العلم العلماني إلى العلم الديني"، الدكتور مهدي كَلشني.

[٢] لم تعد نظرية دارون بثوبها القديم القائم على الاستقراء التاريخي والاستنباط من خلال تفسير التطور بعامل الانتخاب الطبيعي رائجة اليوم، بل تطورت النظرية وازدادت تركيبًا=

عدم الحاجة للإله كما ذهب لذلك هوكينغ في فرضيته بالاكتفاء بوجود القانون[١]، أو نفي الإله كما يذهب لذلك بعض العلماء

وتعقيدًا من ناحية المادة وإن كانت لا تزال تحافظ على هيئتها الداروينية، لذلك تعدل مسماها إلى الداروينية الجديدة وهي تقوم على عدة مبادئ مستقاة من فروع علمية أحيائية مختلفة كقوانين التطور لمندل، والطفرات لديفريس، وغيرهم. حيث يرتكز التطور الآن على الجينات والتغيرات فيها، وتوجيه الانتخاب الطبيعي لهذا التطور دون حاكمية الطفرات عليها، بل هي مجرد عامل مساعد للتطور.

وهذا التعقيد الأحيائي والتفرّع للنظرية الداروينية جعل من مجابهة نظرية دارون بمادتها الخام الأصلية نوعًا من العبث نظرًا للتباين الكبير بين أصل نظرية دارون وما تم التوصل إليه حاليًا في مجال العلوم الأحيائية، مع هذا يظل النقاش في الجانب العلمي لا يخرج عن دائرة الإجابة عن سؤال (كيف؟) وهو استكشاف آلية التطور وأصل الأنواع ولا يتعداه أبدًا إلى سؤال (لماذا؟) وهو سؤال الغاية. فليس من شأن نظرية التطور أن تجيب على سؤال فلسفي يتعلق بأصل الوجود والغاية منه متجاوزة بذلك المادة وميكانيكيتها إلى عالم المجردات والمعاني. فمجرد افتراض نفي الحاجة إلى الخالق بناءً على الاكتفاء بقوانين التطور وسيرها يخرج البحث من مجال العلم التجريبي إلى المجال النظري حيث لا مختبر ولا معمل قادر على الملاحظة والتجريب، هذا ناهيك عن عدم تصادم نظرية التطور بالمجمل مع وجود الخالق سبحانه، بل هذا من التوهم.

[١] لو استعنت بقلم وفرجار، ثم رسمت على ورقة بيضاء دائرة قطرها ٣٠ سم، وبعد أن انتهيت، استولى عليك العجب لانتظام الدائرة وشدة استدارتها، فبقيت تتأمل فيها حتى وصلت لاستنتاج بأن هذه الدائرة بروعتها وانتظامها لابد وأنّ شخص بارع قد رسمها، ولما تعمقت بالتفكير أكثر وصلت إلى نتيجة أن مثل هذه الدائرة مستحيل أن يرسمها دون أدوات هندسية، فافترضت أنه لابد وأن هناك قانون سميته بـ(قانون الدائرة)، لا يمكن أن توجد الدائرة من دونه، ولا تصبح دائرة إن لم تكن على طبقه، وبناء على ذلك، وبخلاصة=

المعاصرين مثل دوكنز، وإن كان دوكنز في حقيقة أطروحته لا يتجاوز ساحة الاشكال على الديانات وليس على الذات الإلهية، وفي كلا الحالتين يستمد هذا الاتجاه من العلم ونتائجه ما يبرر ويؤيد به إلحاده.

مثلاً، في عالم الكوانتم يتم استهداف مبدأ "عدم اجتماع النقيضين" من خلال الادعاء برصد الجسيم في مكانين[١]، وهي مغالطة علمية

تأملاتك، توصلت إلى أن هذه الدائرة التي قطرها ٣٠سم موجودة بشكل عفوي ورسمت نفسها بنفسها كنتيجة طبيعية لوجود "قانون الدائرة" وليست هناك حاجة لوجود أحد من خارجها ليرسم هذه الدائرة فقانون الدائرة يكفل لك رسمها بهذه الطريقة! هذا "العبث الفكري" هو ملخص أطروحة "العالم الفيزيائي ستيفن هوكينغ" في نفي الحاجة إلى وجود خالق للكون من خلال وجود القوانين، في كتابه: التصميم العظيم.

ومنشأ الخطأ كما هو واضح هو الخلط بين الفيزيائي والفلسفي في نفي الخالق، وهذا أمر غير صحيح، لأنه يمكن الاستدلال بالعكس أي: أن يُستدَلّ بالنظام –ولو ببعضه–على وجود المنظم. وساعتها لا يهم اجماع الفيزيائيين على نفي أمر ميتافيزيقي/فلسفي لأنه ليس من اختصاصهم، وحتى دعواهم بالأكوان المتعددة يمكن الرد عليه بالقول أن هذه الفوضوية "المُدعية" وسيلة ذكية لتأسيس النظام، وأن النظام لا يمكن أن ينطلق بصورته الحالية إلا بمقدمة فوضوية كما تظهر لنا لعجزنا عن فهم تصميمها، ناهيك عن أن أصل السؤال عن مُوجِد هذي القوانين الذي لا يزال بلا جواب منهم.

[١] الجزيئات إما أن ترصد بخاصيتها الجسيمية أو ترصد في حالتها الموجية أما أن يتم رصد الجزيء على نحو الدقة بالخاصية الجسيمية والحالة الموجية معًا فهذا أمر غير ممكن. راجع موقع (ناسا بالعربيnasainarabic.net) مقال (ازدواجية الموجة – الجسيم في صورة واحدة) حيث ورد فيه: "ظهرت الادعاءات حول احتمال نقض مبدأ التكامل=

ومنطقية لكنها تمرر بحكم صعوبة فهم المصطلحات التخصصية والتخصص العلمي – سيما إن خرج من عالم في مجاله – على العوام[(١)].

الإلحاد العلمي يعطي الذريعة للملحد، لكنه أبدًا لا يقدم المبررات للإيمان بالإلحاد، وهذا ما لا يُلتفت له بالعادة، فإن اكتشاف طريقة عمل الشيء أو حدوثه تزودك بالذريعة لنفي الإله لكن الاندفاع نحو الايمان هو موقف فلسفي ونفسي وليس موقفًا علميًا، فالعلم صامتٌ

Principle of Complementarily الذي ينص على أنه لا يمكن رصد سلوك الموجة والجسيم في آن واحد، في الإعلام مؤخرًا، ولكن لا تقلقوا، ما يزال مبدأ التكامل مدعومًا". فالتسويق الإعلامي يهدف إلى التشويش على أذهان الناس من خلال تقديم نصف المعلومة (ونصف الحقيقة أشبه بالكذبة!) لنفي مبدأ عقلي بديهي وواضح كاستحالة اجتماع النقيضين، والهدف هو تدعيم النسبية التي تؤدي بدورها إلى إزالة أي يقين ومن ثم يتم نفي أي حدود مائزة بين ما يجب وما لا يجب وما يصح وما لا يصح تسويقًا للإلحاد والنسبية المطلقة.

(١) على سبيل المثال انظر لأحد الرياضيين وهو (لويس كراوس) في كتابه "كون من لا شيء" كيف أنه يدلّس على عامة الناس، فهو يشير إلى أن الاهتزازات الكمومية Quantum fluctuations المدفونة في نسيج الزمكان Space-time تبقى حتى لو أزلت كل شيء من الوجود، وهذه الاهتزازات الكمومية تستمر بالظهور في حيز الوجود، وهي اللا شيء! وحين تستمر بالمطالعة تكتشف أن ما يشير إليه باللا شيء هو ما تساوت نسبتي الوجود والعدم فيه فهو الممكن بالاصطلاح الفلسفي، وهكذا أعاد كراوس اكتشاف العجلة بأن سمى الممكن باللا شيء ثم ادعى محتملاً (وكلمة الاحتمال لفظه) أن اللا شيء أوجد كل شيء (الكون)! فتأمل بهذه المفارقات التي يدعون أنها علم!

أخلاقيًا، لذلك نرى التطور العلمي قد دخل في مجالات لا يزال الإنسان السوي يرفضها بسبب أثرها الأخلاقي السيء كما حدث مع اكتشاف أسلحة الدمار الشامل، لذلك فالعلم بحاجة إلى حارس أخلاقي دائم وهذا الحارس لا ينال شرعيته إلا بقيامه بحراسة تكاليف ملزمة يضعها المتشرع، والمتشرع بطبيعة الحال مجاله أوسع من نطاق العلم التطبيقي، فتأمل.

○ الحالة الثانية: الإلحاد الأنثروبولوجي

هذا الاتجاه الإلحادي يذهب إلى الاستدلال بالنظريات الأنثروبولوجية والتشابه فيما بين الحضارات البشرية إلى نفي الديانات وزيفها، ومن ثم بناءً على ذلك نفي الإله.

ويستغل هؤلاء علم الأنثروبولوجيا في تدعيم آرائهم، فيستدلون مثلاً على زيف القرآن الكريم بكونه حوى قصة الطوفان والتي يزعمون أنها مسروقة من التراث البابلي، أو قصة أهل الكهف المأخوذة من السريان وهي عندهم باسم أهل مغارة أفسس، وأن مكة مأخوذة "إلمقة" وهو معبد الوثنيين من قوم بلقيس وغيرها.

وغالبًا ما يوظف هؤلاء الكشوفات الأثرية في تدعيم آرائهم بزيف الأديان وأنها مجرد صنائع بشرية تعيد توليد تراث الحضارات بصياغات جديدة لنفي الدين وضمنًا نفي العبادة وصولاً للإلحاد.

وتظل هنا إشكالية مضمنة في كلامهم، وهي أنهم يضعون مقدمة كبرى مضمرة تدعي القطيعة ما بين الحضارات والدعوات النبوئية السابقة، مما يعني أن كل حضارة أو دعوة نبوية إنما نشأت ونمت بمعزل عن سابقتها، ودون وجود أي رابط فيما بينها، وعليه فإن أي تشابه بين حضارتين أو نبوءتين يعزى إلى سرقة إحداهما من

الأخرى! وهذا افتراض لا يدعمه دليل[1]. ولنا شواهدنا بأن المصدر واحد لذا يعزى هذا التشابه أو التماثل إلى وحدة المصدر للأصل، وإن تعددت الصور الناقلة له، وبهذا ينتفي الإشكال من أصله.

---

[1] كثير من الكتب التي تدعي البحث في أصل الدين أو نشوء السحر والأساطير تعاني من مشكلة علمية رغم أنها تدعي العلمية! فرغم القيمة العلمية الكبيرة لها والسمعة الواسعة والشهرة العظيمة إلا أنها تظل في النهاية كتب "آراء" و"افتراضات مبنية على عامل واحد" يتم تسويقها على أنها كتب "حقائق"، كيف؟ ببساطة، هناك حقيقة (أ) وهذه حقيقة تاريخية ثابتة لها شواهد وأدلة تورث اليقين، وحقيقة (ب) مثلها، وحقيقة (ج) كذلك، ... إلخ. إلا أنّ هذه الكتب تأتي بالحقيقة (أ) ثم تربطها بالحقيقة (ب) ثم تربطها بالحقيقة (ج) بروابط هي مجرد (افتراضات واحتمالات) مبنية على استحسانات وميول! ثم تقدم لك "نتائج" هذه الحقائق المربوطة فيما بينها بالروابط التي استحسنها الكاتب على أنها حقائق جزمية قطعية!

كمثال للتوضيح: (جاسم شاهد أحمد يضرب خالد)، ضرب أحمد لخالد حقيقة لا شك فيها، لكن جاسم فسّر هذه الحقيقة وافترض أن سبب القتل لابد وأن يكون هو أن خالد شتم أحمد فضربه! وبدأ بنقل القضية على هذا الأساس، ثم اعتمد تفسير السلوك على أنه عدوانية، بينما الحقيقة قد تكون أن خالد داس على رجل أحمد فكسر اصبعه وآلمه فكانت ردة فعله طبيعية! هكذا نقلت حقيقة الضرب مع افتراض جاسم الخاص وأُخِذ الاثنان على أنهما حقيقة بينما الواقع ليس كذلك، خصوصًا وإن كانت القرائن لا تساعد على ذلك مثل كون أحمد ليس له موقف مسبق من خالد وأنه ليس عدوانيًا بطبعه .. إلخ. انقل هذا المثال الآن إلى الصورة الكبيرة بخصوص الدين، فإن وجود أسطورة الفيضان في بابل مثلاً ومن ثم ورودها في القرآن لا يعني أن القرآن استعارها أو تأثر بالحضارة البابلية، بل يعني وجود حقيقة ثابتة في أصلها وهي الفيضان اتفق عليها البشر، وذكر هذه الحقيقة بتفاصيل جديدة بالإضافة إلى القرائن الأخرى كبُعد النبي الأكرم عن حضارة بابل وعدم اتصاله بها=

○ الحالة الثالثة: الإلحاد الاجتماعي

يأتي هذا الإلحاد من خلفية اجتماعية، بالمعنى الواسع للمجتمع، وليس إلحادًا عقليًا إن صح التعبير، فهو بمثابة إعلان غضب على الرب والعياذ بالله. وهؤلاء ينظرون إلى بؤس مجتمعاتهم وانحطاط ما هم فيه على أنه نتاج التمسك بالدين، وتراهم في مقارنة دائمة بين مجتمعاتهم وبين المجتمعات الغربية المنعتقة من الدين ويعزون تطورها لذلك، ومن الطريف أنهم لا يشيرون أبدًا بكلمة الغرب إلى دول أوروبا الشرقية أو الوسطى التي لا تختلف عنهم في بؤسها بل دائمًا يشيرون إلى دول الغرب الغنية التي بنت تراثها ومجدها على دماء الشعوب الفقيرة والتحكم بها[١]!

ودافع هؤلاء للإلحاد دافع اجتماعي، وهو أنه لو كانت هذه الديانات إلهية لما صح لها أن تكون بمثل هذا السقوط، وبهذه الدرجة من تفشي النفاق، بالتالي فإن هذه الأديان مجرد "أفيون للشعوب" لابد من الانعتاق منها كونها السبب في التخلف والبؤس.

واشتهاره بالصدق وعدم الأخذ من غيره يدفع تهمة الأخذ ويؤكد على أن المصدر الوحياني هو الوحيد القادر على معرفة مثل هذه التفاصيل وإبلاغها للنبي، وهذا باختصار ومن باب المثال.

[١] مجموع ما استولت عليه بريطانيا من الهند إبان نهضتها الصناعية يفوق بالقيمة ما انتجته بريطانيا في ذاك الزمن كله، فتأمل!

وهؤلاء يخلطون ما بين طبيعة النفس الانسانية الميالة لاستخدام الغير والأمارة بالسوء وما بين الدين، وما بين العادات والتقاليد المبنية على ظروف اجتماعية مختلفة وما بين الشريعة الدينية، خصوصًا وإن كان هذا الدين وليد السلطة الغاشمة كما هو الحال مع بعض الأديان والمذاهب الدينية، فيحملون الله وزر هذا التخلف ليبرروا كفرهم به، لكون ما هم فيه- بتصورهم - نقيض العدل![١] أو

---

[١] نشرت فرانس ٢٤ تقريرًا على صفحتها، وتناقلته وسائل الإعلام المختلفة في ٢٠١٤/٤/٧م جاءت فيه دراسة عن ارتفاع نسبة الإلحاد في السعودية وتصدرها الدول العربية في عددهم. ولسبر هذه الظاهرة التي قد تكون متكررة بنسب أعلى في بلدان أخرى لم يطلها التقرير أن المشكلة هي في كون الإنسان هنا أنه بات بين خيارين: عالم دين مداهن للسلطة، وعالم دين طالب للسلطة، بحيث غاب عن ذهن هذا العامي البسيط (أو بالأحرى تم تغييب) مفهوم أن الدين هو أمر إلهي وأن هذه السلطة ليست سوى جزء بسيط منه لا يبقى ببقائه ولا يزول بزواله.

فصار المخالف العامي البسيط بين نار طُلّاب الخلافة كمن يطلق عليهم الجهاديين وبين نار دعاة الأنظمة المدنية! (مثل الإخوان الجدد كمعارضة أو المؤسسة الدينية الرسمية كمداهنة) بحيث بات عليه أن يتخندق بخندق تيار ديني سياسي إن أراد أن يتديّن لأنه لا يرى غيرهم أمامه، لذلك هو يضطر لأن يكفر بالدين (والكفر هنا مفهوم مشكك ذو مراتب) لتصوره أنه بهذا يكفر بهذه المشاريع التي تجبره على دين يدور مدار السياسة وطلب السلطة بدل عبادة الله سبحانه وتعالى.

العالَم المخالف بحاجة لمؤسسة دينية بعيدة عن السياسة، فإن انعدمت فلا أقل من عالم=

دين بعيد عنها لا يشغله إلا العلم والانصاف، وحينها يمكن اقناعه بأن الدين ليس مجرد سلطة وسياسة، وأن الفقه يحتاج لمتخصص يفتي بما يعتقده يجزئ ويبرئ ذمة المكلف أمام الله.

والسؤال الذي يُطرَح عن ضرورة الرجوع للفقيه في تكاليفه، فإجابته هي أن يعي العامي أن الفقيه "حجة في الفقه" وليس في كل الأمور، فهو كالطبيب حجة في الطب، وكاللغوي حجة في اللغة وهكذا، وأن هذا لا يمنع وجود آراء أخرى في السياسة والاقتصاد وغيرها عنده، لكنها آراء شخص مطلع، لا يجب فيها التقليد. إن تحقيق الفصل بين مقام الفقه ومقام العمل الاجتماعي ضروري لإقناع العامي بالتقليد.

ثم إن التقليد هدفه إبراء ذمة المكلف، وطالما كان المكلف غير مجتهد ولا محتاط، فالعقل يحكم عليه بضرورة التقليد، لأن الله سبحانه حكيم خبير، ولمّا كان كذلك كان دينه حكيمًا، فلا يمكن له أن يترك هذا الدين عرضة لعقول العامة وأهوائهم لأن في ذلك نسبة العبث وعدم الحكمة له عزّ وجل. إن أحدنا لا يجرأ أن يحكم في قضية فيزيائية بسيطة دون علم، فكيف بدين الله الذي هو سبيل النجاة للإنسان في الدارين.

وهنا نأتي إلى حكم العقل، فالتأسيس العقلي للتقليد يعطي خطابًا يقنع الجميع، لكنه بشرط، وشرطه هو وجود شخصية قابلة لهذا التطبيق. لا يمكن أن تدعو الناس للتقليد دون أن توفر لهم عالمًا يستحق التقليد. وإرشاد العقل هو أنه إذا كان الله حكيمًا عادلاً – وهي مقدمة أولى ثابتة في محلها – فلا بد له من شرعة توصل إليه، يرضا بها، وتحقق السعادة للإنسان، فالإنسان هنا إن كان عالمًا بالحكم الشرعي فقد قضي الأمر أما إن كان شاكًا، فيجب البحث في حجية قول الفقيه والبحث عن الحجة المعذِّرة أمام الله.

ثم إن ثبتت حجية التقليد، فهنا سبيلان: إما الاجتهاد وإما تقليد الفقيه الأعلم الجامع للشرائط التي يثبتها الدليل (لا الاحتياط)، فإن ثبت طريق التقليد، فعليه: إما أن يجهل بطلان دليل المرجع بالنسبة لحكم ومسألة ما، (أي عدم التيقن بخطأ دليل الفقيه=

اعتزازًا بالهوية القومية التي يتصورونها ندًا للهوية الإسلامية التي يرفضونها[١]، وكنوع من تسجيل الاعتراض على هذه الحكومة الدينية أو تدخلات ما يدعونهم برجال الدين.

وكذلك "دوكنز" كثيرًا ما يستدل بسلوكيات اجتماعية على زيف الأديان وكذبها، وهذا من عجيب القياس ومخالفة المنهج العلمي الذي يفترض به أن يحاكم الأسس لا أن يحكم على الظواهر، ولا ينطلق من السلوكيات في نفي العقائد قبل بحثها منهجيًا.

ومستنده) وعليه يجب تقليد الفقيه والالتزام بقوله تبعًا لرجوع الجاهل للعالم، وإما أن يعلم ببطلان مستنده ودليله في هذه المسألة، وهنا في هذه المسألة يبطل تقليد الفقيه وعلى هذا الفرض يكون على المكلف الاجتهاد في هذه المسألة. وبناءً على اختيار طريق الاجتهاد: فإما البدء بطلب العلم لسنين طويلة والاجتهاد في العلوم الداخلة بالاستنباط وهي لا تقل عن عشرة ثم رجاء المعذرة من الله سبحانه والعفو منه عز وجل، أو الاستعداد للمساءلة والمحاسبة يوم الحساب والمساءلة إذا كان العمل بلا دليل ولا مستند ولا رجوع للمتخصص لأنه تطفل على دين الله سبحانه.

[١] نشرت صفحة "نقاش" في ٢٠١٥/٥/٢٥ على موقعها خبرًا جاء فيه: "ظاهرة مُلفتة بدأت تنتشر في بعض مناطق إقليم كردستان تتعلق بإحياء طقوس الديانة الزرادشتية التي بدأ يزداد أتباعها يوماً بعد آخر وهم يخططون لإحياء عدد من المعابد المندثرة وإعادتها إلى الحياة" وبتتبع هذا الخبر تبرز ظاهرة العودة لدين الأجداد القومي في قبال الإسلام الذي صار اليوم بنظر بعضهم للأسف دينًا وافدًا تمثله داعش وأضرابها الذين يهددون هذه القوميات في أوطانها.

○ الحالة الرابعة: الإلحاد النفسي

وهذا الاتجاه أصحابه مصابون بعقد نفسية من المتدينين مما يجعلهم ينفرون من الدين ككل، أو أنهم يرون في الدين حِجرًا عليهم، ينقل بول فيتز[١] عن الأديب والفيلسوف الأمريكي مورتيمر آدلر قوله: "إن صيرورته [أي آدلر] إلى رجل متدين يتطلب تغيير الكثير من طريقة حياته وهذا أمر متعب وليس بالسهل". فالجامعات الغربية ومراكز الأبحاث تصر على تسويق الإلحاد وإبرازه كقاعدة عامة، لذلك فإن الأكاديمي الذي يبحث عن الاستيعاب الأكاديمي والاجتماعي يلجأ إلى إعلان الإلحاد طلبًا للراحة، وسعيًا لتحقيق الأهداف الشخصية[٢].

---

[١] (بول فيتز) Paul C. Vitz بروفيسور علم نفس أمريكي في جامعة نيويورك له دراسات ومقالات منشورة عن علاقة الإلحاد بالعقد النفسية عند صاحبها، وبتعبيره إن معظم الملحدين ليس إلحادهم منطلقًا من أسباب عقلانية إنما من دوافع نفسية. يطرح رؤيته بشكل مختصر ضمن محاضرة على اليوتيوب بعنوان (The Psychology of Atheism).

[٢] باتت الجامعات ومراكز الأبحاث الغربية مختطفة من قبل الشركات الكبرى التي تمولها، وهذه الشركات ربحية بالمقام الأول وتسير بسيرة الرأسمالية المتوحشة التي لا ترى في الدين إلا عائقًا أمام الربح. لذلك باتت تتحكم حتى بنتائج المنشورات العلمية من خلال سطوتها على المجلات العلمية ومراكز الأبحاث وصار الباحث الذي يطرح مقالاً علميًا يفند فيه رؤية الإلحاد (وما يستلزمه من انحلال) منبوذًا ومعزولاً في المجتمع العلمي الذي يعمل الإعلام على صبغ أفراده بصبغة إلحادية زاعمًا أن العلم والدين لا يجتمعان! وهكذا لا=

لقد كان من ضمن زوبعة أحداث اعتداءات الكنائس الجنسية أن نشرت البي بي سي تقريرًا عن ايرلندا شارك فيه بعض ممن ناله التحرش من أحد القساوسة وانتهى بهم المطاف حين كبروا بترك الدين، ودفاعهم هو إن كان هؤلاء رجال الله كما يدعون، فكيف بالله؟[١] تعالى الله سبحانه عمّا يصفون، رغم ذلك فإن التصور المادي لله خصوصًا عند الغربيين ومن ماثلهم من مشبهة ومجسمة، وعدم انفكاك صورته عن رجال الدين في تصوراتهم جعلهم يمارسون نوعًا من الإسقاط[٢] هو في حدّ ذاته مخالف للمناهج العلمية التي يدعون الإلتزام بها ليبرروا إلحادهم!

يكون أمام البحث العلمي أي التزام أخلاقي أو شرعي يضمن عدم اندفاعه في اختراع وابتكار وبحث ما هو محظور بدءًا من الأسلحة المحرمة وصولاً إلى التجارب على الاستنساخ البشري. للمزيد راجع كتاب: لماذا الدين ضرورة حتمية؟ للبروفيسور هوستن سميث.

[١] في آخر مقالاته بعنوان (ست محطات في حياتي) كتب جورج طرابيشي قبل وفاته: "وهكذا لم أكتفِ بإغماض عينيّ، بل رحت أمشي في الطريق إلى البيت وأنا أحاول أن أطرد من فكري صورة الإيطاليات الثلاث وكلّي خوف من أن تشاء المصادفة أن يسقط فوق رأسي من إحدى الشرفات أصيص زهر من الأصص التي كان من عادة سكان بلدتي حلب أن يزيّنوا بها شرفاتهم فأموت وأنا في حالة خطيئة مميتة. ووصلت إلى البيت وأنا في شبه هذيان وأصابتني حمّى حقيقية وبقيت يومين طريح الفراش، ثم لما أفقت كان ردّ فعلي الوحيد أنني قلت بيني وبين نفسي: لا، إن الله ذاك الّذي حدثني عنه الكاهن لا يمكن أن يوجد ولا يمكن أن يكون ظالماً إلى هذا الحدّ. ومن ذلك اليوم كففت عن أن أكون مسيحيا."

[٢] انظر مثلاً لما كتبه أحد أشهر الملحدين العرب، وهو عبد الله القصيمي، وكيف أنه لم يستطع أن يفهم صفات الله سبحانه فقاسها بصفات البشر وأسقطها عليه نتيجة تركيبته=

وهذا يفسر إلحاد كثير حتى من المسلمين حتى، ويُظهِر كيف أنه نابع من عقد نفسية إما من رجال الدين أو من السلطة الأبوية التي يسقطونها على الدين وعلمائه فيتهمونهم بالوصاية والتسلط والاستبداد، أو نتيجة تصورات ساذجة في فهم التوحيد والدين، فيلحدون تخلصًا منها أو نقمة عليها، أو يلحدون للتخلص من عقدة الذنب التي ترافقهم نتيجة رغبتهم بعدم التقيد بالقيم الدينية[١].

الثقافية الضحلة وخلفيته الدينية الساذجة في فهمها لله عز وجل فبرر إلحاده من خلال تعبيره عن نقمته على صورة الإله في القرآن الكريم، بقوله: " هل وجد واصف هجا نفسه وموصوفه مثلما فعل محمد في وصفه لإلهه؟ كيف وصف النبي العربي محمد للإله.. لمكره وخداعه وكيده ولحبه وبغضه ورضاه وغضبه ولسروره وكآبته وعداوته وشهواته وممارساته .. إنه لم يوجد ولن يوجد هاج مثل النبي محمد في هجوه للإله!" راجع: أرشيف ملتقى أهل الحديث، ج ٦٢ ص ٢٧١ في المكتبة الشاملة.

(١) يتحدث الدكتور عبد الرحمن بدوي في كتابه (تاريخ الإلحاد في الإسلام) عن "عصابة المجّان" الذين تزندقوا فرارًا من تكاليف الدين. ويستشهد بهم من ضمن السياق لاثبات أن كثير من حالات الإلحاد والزندقة إنما هي تعبير عن اندفاع نفسي نحو الحرية والإنعتاق من التكليف والإلتزام.

○ الحالة الخامسة: الإلحاد الفلسفي

هذا النوع من الإلحاد مادته الأساسية مصطلحات الفلسفة والمنطق والتنظير النظري، وساحته هي المباحث الفلسفية والمنطقية المتعلقة بالعلل والمعلولات والسبب والسببية والخير والشر، وهي مباحث نظرية في المجمل. ولا يستدعي مصطلحات العلوم التطبيقية وغيرها. وفي جذوره هو ملفقٌ من حالات نفسية واجتماعية تجعل صاحبها يلحد ويبرر إلحاده بالمغالطات الفلسفية والمنطقية.

والتركيز عادة يكون عن أثر الإله على هذا الوجود، ومنه ينطلقون في نفيه مستدلين باستدلالات غير منهجية في العادة، وبثوب يدعي العقلانيةوهو ليس كذلك، ويمارس غموضًا في العبارات والمصطلحات حتى يتيه القارئ ويستسلم لقبول كل ما قيل.

والأمثلة على رواد هذا التيار كثيرون، ومن أبرز الأمثلة على ذلك:

"نيتشه" في (الإنسان السوبر)[١] و"شوبنهاور" في (الإرادة)[٢] ولا يبتعد عنهم راسل[٣] وهيوم[٤].

---

[١] يشير البروفيسور بول فيتز إلى أن نيتشه إلحاده نفساني وهو تعبير عن سخطه على الحياة جرّاء فقده لوالده وهو صغير، إلا أن هذا لا يعارض كون إلحاده مبني على فلسفته التي ابتدعها ولم يجعل لله فيها مجالاً، ففلسفة نيتشه قائمة على أن فكرة (الله) لم يعد لها وجود أو حاجة من ناحية الجوهر، فالذهنية المثالية التي كانت مسيطرة على الإنسان=

القديم انتهت، وأتى الإنسان الجديد، الإنسان العلمي والعملي الذي يستطيع تحقيق ما يريده بإرادته، والذي عليه أن يتخلص من أي قيود تجعله خاضعًا لإرادة غيره كما هي الأخلاق المسيحية التي حاربها نيتشه.

(٢) تقوم فلسفة شوبنهاور التشاؤمية على اعتبار الحياة شر مطلق، وأن الدين هو أسطورة لا واقعية ابتكرها الإنسان لمجابهة مخاوفه. وستلاحظ من هنا الافتراق الجلي الذي حصل بين الفلسفة من ناحية كونها تبحث في الوجود من حيث هو وجود، إلى فلسفة معاصرة غارقة بالأدب والشعر والخيال والخطابيات والاستحسانات بعيدًا عن ضوابط العقل وقوانينه الصارمة، وتسمية هذا الإلحاد بالإلحاد الفلسفي هو من باب التسامح في الألفاظ سيما بعد توسيع لفظ الفلسفة ليشمل هذه الأدبيات.

(٣) إن أهم إشكالية تنشر من لسان برتراند راسل هي التي نشرها في مجلة المصور سنة ١٩٥٢م، عن ابريق الشاي الذي يدور في الفضاء اشتهرت المسألة باسم "ابريق راسل"، لكن المغالطة الأساسية في هذا الاشكال لا تكمن في ضرورة اثبات دوران الابريق أو دحض وجوده بل في أن راسل ينطلق من مقدمة وهي أن "غياب العلم بهذا الابريق لا يضر كما أن العلم به لا ينفع، لذلك فإن العبء ليس على من ينفيه بل على مثبته" ومن الواضح أن المسألة في إثبات الخالق ليست مسألة اثبات وجود أو عدم وجود بل أن الاثبات يترتب عليه تكاليف ونفي الوجود يترتب عليه تكاليف، ومسألة اثبات الخالق تقود إلى ضرورة الحكمة والعدل، وهما يثبتان ضرورة وجود النبي والشريعة ومن ثم وجوب الالتزام بها، ناهيك عن باقي المسائل، فهي ليست مجرد مسألة نظرية كمحاولة اثبات وجود الأشباح أو عدمها بل إثبات وجود الخالق يثبت وجود التكليف، وهذه مسألة نظرية وعملية ولها ثمار مباشرة منعكسة على حياة الإنسان ونظامه، واثبات وجوده يثبت انعدام الصدفة ويعطي الإجابة عن "سبب الوجود"، فتأمل.

(٤) ديفيد هيوم (ت ١٧٧١م) فيلسوف بريطاني إسكتلندي. تبني أهم آراء هيوم على ثلاث محاور، الأول اعتبار الحس الطريق الوحيد للمعرفة والثاني أن فهم الواقعيات غير متحصل بل إن الإنسان يفهم كل شيء بواسطة ذاتيته — أي أن كل ما يتوهم الإنسان معرفته عن=

يقدم هذا الإلحاد الفلسفي نوعًا من الخطاب الشبيه بالخطاب العقلي، ويمكن تمريره على كل غير متخصص بحيث ينخدع به وبمغالطاته، ويستهدف هذا الإلحاد بشكل أساسي ضرب أدوات المعرفة العقلية وتخطئة أحكام العقل القطعي، والبديهيات الإدراكية.

كما أن كثير من الفلسفات الإلحادية إنما هي مجرد خطابات شعاراتية ترفع من قيمة الإنسان في قبال أي شيء آخر حتى تجعله المحور ثم ترفع من قيمة تلبية احتياجاته المادية حتى يصير الإنسان

العالم الخارجي هو اسقاط لما في نفسه من مدركات ذهنية مختزنة ومعارف سابقة ومعتقدات مكتسبة يفسّر بها العالم — فمذهبه يتبنى الذاتية في مقابل الموضوعية والثالث اعتباره أن مواقف الإنسان ليست ناشئة من إرادة حرة بل هي آلية، فالإنسان يتصرف وفق دوافعه المنبعثة من مشاعره وأحاسيسه فما يلتذ به خير وما يتألم منه شر، ثم ينتقل للمشاعر الداخلية وهي الكره والحب، فالإنسان آلة ذراعا التحكم بها هما الاحساس الباطني أو الانفعال الوجداني. وبناءً على هذا كله يصل هيوم إلى لبّ فلسفته القائمة على نفي السبب والسببية، وأن ما نراه من ترادف السبب مع المسبب إنما هو وَهْم نتيجة تداعي المعاني في الذهن البشري، فنحن نربط ما بين اشعال النار (كسبب) وما بين الحرارة والدفء المنبعثين من النار (كنتيجة) وليس هناك دليل حقيقي يربط النتيجة بالسبب سوى ما نتوهمه في أذهاننا! ويتوسع هيوم في فلسفته هذه لينفي على أساسها الاستدلال بوجود الله سبحانه من حيث كونه السبب في ايجادنا وعليه ينطلق في نفي أي التزام أخلاقي لا يفرضه الحس من ناحية اللذة والألم! ولا أدري كيف لمؤمن بفلسفة هيوم أن ينسب له هذه النتائج بدلاً من نسبتها للقلم الذي كتبها، فليس كونها مكتوبة باسم هيوم سببًا لاعتباره كاتبًا لها! فتأمل بهذه السفسطة والمغالطة.

في خدمتها، لا هي بخدمته، وبتعبير د. عبد الوهاب المسيري " تبدأ بسحب المفاهيم من عالم الإنسان وتضعها في عالم مستقل تسميه (عالم الأشياء) ثم تسحب الإنسان نفسه من عالم الإنسان وتضعه في عالم الأشياء هذا"[(١)].

---

(١) ولعله من أبرز الأمثلة على ذلك الفيلسوف الامريكي المعاصر دانييل دينيت، وهو أحد رموز الإلحاد في هذا العصر، وفكرته عن (وهم ادراك الذات) illusion of consciousness. وهي عبارة عن عبارات مبهمة وتراكيب لغوية مدببة بألفاظها خاوية في معانيها، فهو يقول بأن هذا الإنسان في الواقع ليس فردًا واحدًا بل هو مكون من بلايين الخلايا العصبية ومن ثم فإن أحساس الإنسان بنفسه على أنه فرد واحد هو وهم وخدعة. فهو يسلب من الإنسان وعيه وضميره ثم يقول له بأنك لست سوى تجميع لملايين الخلايا (ولاحظ هنا أنه يُعرّف الإنسان على أنه وحدة مصنعية مادية فقط) وأن أدمغتنا تستغفلنا (ولاحظ هنا كيف أنه يضرب قوة المعرفة عند الإنسان ويشكك بأحكامها) وهكذا يتوصل إلى نتيجة وهي أن الإنسان لا يملك وعيًا ذاتيًا ولا وجود "للفرد الإنساني" أساسًا. ويستدل في احدى محاضراته لاثبات فكرته على موقع TED الشهير بخطأ الحواس لاثبات خطأ الإدراك وهي شبهة قديمة جدًا ونوقشت كثيرًا (راجع مثلاً كتاب: أصول المعرفة والمنهج العقلي للشيخ أيمن المصري)، فخطأ الحاسة وإدراكه لهذا الخطأ يعني وجود العلم بما هو صحيح وإلا لما علم بخطأ الحاسة واستشهد بها. ورغم هذا فإن تطفل هذا الفيلسوف الملحد على ساحة العلم، وفلسفته لبعض نتائج العلم التطبيقي يقابل بالترحيب في المجتمع الغربي بينما يستهجن أي تدخل لغيره من المؤمنين!

بعجالة، فإن أول خطأ يقع به هذا الفيلسوف (!) هو عدم تمييزه بين الإدراك البسيط والإدراك المركب،فنحن لا ندرك الأشياء فقط، بل ندرك أننا ندرك، ما يدل على وجود إدراك أسمى من الإدراك البسيط، ثانيًا من أوهم هذه الملايين من الخلايا على أن تتصرف وتعمل وتدرك على أنها "فرد واحد" فإن كانت ملايين الخلايا الصماء أقنعت ملايين=

○ الحالة السادسة: الإلحاد الأدبي

يتبنى هذا الاتجاه الإلحاد كوسيلة تخلصه من الالتزام بقيم أخلاقية أو معيارية، بحيث يصبح الكاتب الأدبي متحررًا في كتاباته الأدبية فيخاطب الغرائز دون وجود قيد يمنعه أو ذنب يحمله[1].

الخلايا الصماء الأخرى بأنها فرد، فكيف للكثير أن يؤثر على الكثير ليصبح واحدًا؟ ثالثًا كيف لهذه الملايين الصماء من الخلايا أن تعمل لتدرك الصواب من الخطأ والخير من الشر وتؤسس نظامًا وهي صمّاء تحتاج لمعطيات لا يمكن لها أن تتحرك إلا وفقها، فإن كانت التجارب وفرت هذه المعطيات بزعمهم فكيف كان مع الفرد الأول قبل التجارب وهل كان يتصرف على أنه كثير أم أنه فرد واحد؟ وكيف جاز للإنسان أن يقيّم هذه المعطيات فيترك الخاطيء ويتمسك بالصواب إن كان مجرد آلة لا يستطيع تجاوز ما يعطى له فكيف بالتفكير فيما أعطي ومحاكمته؟ وكيف أدركت الخلية الأولى (وهي صمّاء) حاجتها إلى ملايين الخلايا الاخرى لتصبح كائنًا مليئًا بالتعقيد ثم تخترع له لا مجرد وعي بل وعيًا مركبًا كالإنسان؟ وهكذا عشرات الأسئلة التي تظل بلا إجابة من قبل أصحاب هذه السفسطة الفلسفية والمغالطات العلمية.

(١) كمثال، فإن سارتر (ت ١٩٨٠م) الذي يشار إليه بأنه رائد الفلسفة الوجودية التي ترى أن الإنسان عليه أن يحقق حريته ولا يكون ذلك إلا بالانعتاق من كل شيء وأولهم الخالق سبحانه، كما في مسرحيته (الذباب) على لسان أحد أبطاله مخاطبًا الإله الذي وهبه الحرية فيها: "ربما، ولكنها انقلبت عليك ولا نستطيع بعد شيئًا .. لا أنت ولا أنا .. منذ أن خلقتني لم أعد ملكًا لك"! ففلسفة سارتر تقوم على التحرر من كل شيء لتحقيق الإنسان لوجوده من خلال تحقيقه لحريته المطلقة، وكان سبيل سارتر في اثبات ذلك مسرحياته=

مستند هذا النوع من الإلحاد هو على الخطابيات والشعر ومخاطبة الغرائز الشهوانية والسبعية في الناس، ويلقى رواجًا بين قرّاء الأدب والروايات على وجه الخصوص[١].

إن ابتلاءات الحياة الحالية وصعوبة العيش فيها، والضغط العصبي الذي تولد كنتيجة مباشرة للتطور التكنولوجي والحضاري جعل من الأدب وسيلة لتفريغ مكبوتات الإنسان المعاصر الذي لم يعد يرى في الكتب المقدسة والأديان ملاذًا بعد أن تمت برمجته لقبول النسبية وتنشئته على الإلحاد وفصل الدين عن وجوده وشؤونه، فصار كائنًا لا يرى سلوته في الحزن

التي قام بتأليفها حتى أطلق عليه الشهيد مطهري لقب (أديب الفلاسفة) لكونه ليس فيلسوفًا حقيقيًا بل أديب يكتب في قضايا فلسفية!

[١] إن أسوأ ما يتم تبرير الإلحاد والإباحية والشذوذ به هو ادعاء (الضرورة الأدبية) فترى روائيًا يملأ روايته بالتشكيكات والإباحية مدعيًا أن الضرورة الأدبية تحتم عليه استخدام مثل هذه اللغة. ولا أدري هل الضرورة الأدبية يمكن أن تحتم عليه أن يشتم نفسه، أو يستهزئ بوالديه أو يحقّر من الناس، أم أن الضرورة الأدبية تتلاشى أمام سيف القانون مما يجعله يستخدم التورية والمجاز والمداراة وأحيانًا القفز فوق المطلوب، فهل القانون الذي يمنع التعدي على الآخرين هو أقل إلزامًا من الالتزام الأخلاقي الذي يفرضه الشرع من خلال ضرورة الانضباط بالعفّة وحسن الخلق؟ ثم ما هي قيمة الأديب إن كان عاجزًا عن إيصال رسالته دون فجاجة ومباشرة؟ وإن كان عاجزًا عن تطويع اللغة لإيصال الرسالة النبيلة لا الرسالة التجارية التي يستهدف بها تسليع حتى غرائز الإنسان ليبيعها وَهمًا طمعًا بالربح والانتشار والسمعة، فهل هذا العاجز المتهتك يستحق لقب (أديب) أولاً حتى يبيح لنفسه فرض الضرورات بعد ذلك؟

والفرح إلا بأبيات شعر أو قصص روائية ملفقة يستمد منها قيمه ومبادئه بعد أن فقد اتصاله بالخالق والربّ، وهو ما يجعل الاتجاه الأدبي الخيالي والروحي يتسيد الساحة الآن بروايات مثل الخيميائي لباولو كويلو أو قواعد العشق الأربعون لأليف شفق، وهي روايات تقدم محفزات عاطفية ووجدانية وخيالية وبعضها شهوانية بعيدًا عن أي تكاليف أو إلزامات أو حتى ضوابط معرفية وأخلاقية لتساهم في خلق "عالم وحدة الديانات"، حيثُ لا حقّ ولا باطل ولا فرق بين مؤمن وملحد!

○ الحالة السابعة: الموقف اللا أدري

يتنوع الموقف اللا أدري، بين الحياد السلبي والحياد الإيجابي تجاه وجود الخالق وبشكل متفرع عنه، الدين.

يقسم بعضهم اللا أدرية إلى سلبية وإيجابية، أما السلبية فهي التي لا ترى في وجود الله قضية مهمة ولا يترتب على البحث فيها ثمرة لذلك هو يأخذ موقف اللا أدري من حيث عدم اهتمامه ونظرته السلبية لقضية الخالق سبحانه، أما الإيجابية فهي التي ترى بوجود الربّ لكنها لا ترى في الأديان ما يستدعي الإلتزام بأحدها لعبادة الله، إنما يكتفون بالإيمان بوجوده وغالبًا هذا الإيمان لا يترتب عليه تكليف أو اعتقاد غير الاعتقاد بوجوده فقط.

قد لا يكون للا أدرية موقف واضح من نكران الإله ونفي وجوده، إلا أنه يعتبر اثبات وجوده قضية مهملة أو غير مستحقة، أو غير قادرة على الاثبات البرهاني، ناهيك عن ضرورة الالتزام بشريعة وأحكام.

يدعي بعضهم أن مفتاح اللا أدرية قد ابتدأ مع إيمانويل كانط – الفيلسوف الألماني – بعد إطلاعه على نتاجات هيوم، فقد ادعى أن قضية اثبات وجود الله سبحانه لا يمكن اثباتها بالدليل العقلي كما لا يمكن نفيها به كذلك، إلا أن وجوده تفرضه

الضرورة الأخلاقية وجدانيًا. وهكذا بدأ الموقف اللا أدري يبرز شيئًا فشيئًا وينتقل من كونه موقف فردي إلى فلسفة قائمة.

يندرج الموقف اللا أدري تحت الإلحاد كونه يعطي (لا إجابة) عن قضية الخالق والخلق، والسبب هو عدم شعوره بالحاجة إلى الخالق أو عدم رغبته بالإلتزام بالتكاليف وما يستدعي ذلك الإيمان من نفي النسبية ووجود معيار واضح يصنف الأشياء إلى جائز وغير جائز. والموقف اللا أدري قد يكون ناشئًا من أي من حالات الإلحاد السابقة لكنه قد يمتاز عنها بالتوقف عند عدم الاثبات بدلاً من النفي الجازم، والإهمال في السعي نحو الاجابة.

كما أن اللا أدرية موقف يتسم بالضبابية لذلك يتخذه عادة المشككون حيث ينطلقون من منطلق التساؤل فيغرقون الإنسان البسيط بالتساؤلات بعد أن يدمروا الآليات المرجعية الثابتة التي كان يستند عليها لتحصيل الإجابة[1]، لينتهي تائهًا منهكًا ومعزولاً عن أي ارتباط وغير متخذ لأي موقف، ومطواعًا لما يفرضه السوق –بمعناه الاستعماري - عليه.

---

[1] إنّ أي شخص يحاول تسويق انحرافه أول ما يبدأ به هو ضرب العلوم الضابطة سواء باللغة أو العقليات ليحول الآخرين إلى أرض رخوة قابلة لأي زرع. إن علوم مثل النحو والمنطق هي علوم مهمتها تقنين العقل والألفاظ بحيث يكون البحث والفهم والتفكير منضبطًا ويمثل مرجعية ثابتة يمكن الاحتكام إليها. وعادة ما تتجاوز اللا أدرية الموقف من الله سبحانه إلى موقف مماثل من هذه العلوم وغيرها لأنها تستلزم أخذ مواقف صارمة واستخدام آليات منبضطة بينما اللا أدري يتهرب من هذا الالتزام.

الخلاصة

إن تصنيف حالات الإلحاد تحت عناوين مختلفة لا يستهدف في الواقع إظهار المباينة والمفارقة بين هذه الحالات إنما يهدف إلى ضرورة التفريق بين المنطلقات الإلحادية المختلفة لتسهيل التعامل معها وفهمها. أما الإلحاد كحالة نظرية فهو قد يكون مركبًا من أنواعٍ مختلفة وله أسباب وجذور متنوعة مستمدة من أكثر من حالة من هذه الحالات إنما قد يغلب عليه اتجاه بحيث يكون قابلاً للتصنيف تحته، فتراه مثلاً يشتغل بالأدب ويغلب عليه هذا الاتجاه بحيث لا يعبّر عن إلحاده إلا من خلال أدبياته.

أما الإجابات على هذه الإشكالات، وآراء رموزها أوسع من أن تشملها هذه الرسالة الصغيرة، وما فيها من إشارات إنما هو من باب الاستطراد وليس من باب الحصر والتقييد، كما أن التصنيف والتنميط هو من باب الاستقراء والغَلَبة من واقع الخبرة وليس من باب الحصر كذلك.

تبقى هناك ملاحظة أخيرة أرى من اللازم الانتباه لها، وهي أن حالات الإلحاد بمجملها تعتمد على شيئين أساسيين، الأول هو تمييع اليقين: بحيث يصبح الهدف الأساسي في أي طرح هو ضرب الثوابت اليقينية والتأكيد على نفي اليقين الموضوعي كبداية، لأنه متى ما هدمت الخلفية المرجعية للإنسان والتي تعطيه المشروعية لأي فعل وتملي عليه حركته في هذا الوجود أصبح مطواعًا لأي شيء يقدمه الإعلام أو غيره كبديل لها ومن ثم فهو مجنّد محتمل لأي فكر تجاري أو ايدلوجي، والثاني هو تهوين التشكيك من خلال تغذية الإنسان بمفاهيم النسبية وزعزعت اطمئنانه بأي ثابت يعتقد به[1] بحيث يفقد الاستقرار النفسي والعقلي فيعيش حالة قلقة تجعله في سعي مستمر لإثبات نفسه وسطوته على غيره ويقاس نجاحه لا على صعيد نجاته الأخروي وحسن عمله الدنيوي بل على ما جناه وحققه في حياته الدنيوية وما حازه من سلطة ومال ونفوذ أو تأثير.

لذلك، فإن أي مائع فكريًا لا يملك القدرة على النقاش المنهجي والتأسيسي، بل نقاشه كله بالأمثلة والنتائج وهو ما يطلقون عليه عبارة "الاستناد إلى الواقع" لتمييع حقيقتها.

---

[1] في نهج البلاغة عن أمير المؤمنين عليه السلام: "أيها الناس، سلوا الله اليقين، وارغبوا إليه في العافية، فإن أجَلّ النعمة العافية، وخيرُ ما دامَ في القلب اليقينُ، والمغبون من غُبن دينه، والمغبوطُ من غبط يقينه".

ففي مناقشة زواج المثليين على سبيل المثال، تراه يقفز إلى أمثلة ونتائج موجودة على الواقع مثل: لماذا تقف في وجه الحب؟ بماذا يضرك وجود اثنين يحبان بعضهما؟ الدول المتقدمة والمتطورة لم تتخلف بتشريع زواج المثليين ... إلخ. والعامي حين يسمع مثل هذا فإنه سيقبله طالما لم يسع للتفكير والتحليل بل القبول والتسليم مع ما تم برمجته عليه من قبول النسبية في كل شيء.

بينما يجب أن يبتدأ النقاش من الأصل بمصادر المعرفة عند الإنسان، ودور العقل، انطلاقًا منه إلى أهميته وصولاً إلى ما يرشد الإنسان إليه من حفظ النوع وطلب الأمن وبناء السكن والسعي للاستقرار وطبيعة الانجذاب إلى النوع المغاير لتحقيق ذلك — وهو ما لا تنفيه وجود حالات شاذة بغض النظر عن دوافعها أو طبيعتها - وتعارض هذا مع تفشي الإباحية والمثلية، فإن حجته المؤيدة لمثل هذا الشذوذ تسقط بسبب التعارض مع العقل الذي يدعو إليه، ويطعنه من الخلف!

وهكذا مع باقي القضايا التي يطرحها، لا تختلف — كما مر — عن مناقشات بنتائج وافتراضات ونادرًا ما يلجأ الملحد أو اللا أدري إلى مناقشة منهجية بالأسس والمبتنيات، بينما هي الأصل لأنها تشكل الخلفية لليقين المرجعي للإنسان.

إن التنبه إلى ضرورة تحصين العقل وتحصيل العلم، مع مراقبة النفس كما أمرت الشريعة الغراء يقودان الإنسان إلى الهداية، وأي انفلات منهما هو رسوب في الامتحان ينزلق بالإنسان إلى مدارك الهلاك، ولعلّ أهم شيء هو الانتباه إلى هذه النفس وما يزرِع فيها فإن حصادها في معظم الأحيان هو ما يقرر حال الإنسان في اختباره الدنيوي، ولربما من هنا كان جهادها هو الجهاد الأكبر ففي الكافي عن الإمام الباقر عليه السلام: ما من شيء أفسد للقلب من خطيئته. إنّ القلب ليواقع الخطيئة فلا تزال به حتّى تغلب عليه، فيصير أعلاه أسفله.

وفي الكافي عن أبي عبدالله الصادق عليه السلام: لو أن العباد إذا جهلوا وقفوا، ولم يجحدوا، لم يكفروا.

هذا، والحمد لله ربّ العالمين،

وصلى الله على نبيه الأكرم وآله الطاهرين.

علي ح. زكريا

ديسمبر ٢٠١٦م | ربيع الأول ١٤٣٨ هـ

alizk85@Gmail.com